صلة السياسة بالأخلاق فى فلسفة القديس أوغسطين

(دراسة تحليلية نقدية)

من خلال كتاب (مدينة الله)

أ. نانسى أمير توفيق مرقص

باحثة دكتوراة في الفلسفة القديمة والعصور الوسطى

قسم الفلسفة – كلية الآداب

جامعة الإسكندرية

كتب القديس أوغسطين مؤلفه الهام (مدينة الله) (De Civitate Dei Contra Paganos)، والذى يعنى (مدينة الإله في مواجهة الوثنيين) باللغة اللاتينية القديمة فى القرن الخامس الميلادى في حقبة مأساوية من تاريخ أوروبا، وذلك بعد أن سقطت روما فى أيدى البربر عام ٤١٠م .

وكتبه بناء على طلب أحد أصدقائه ، ورداً على أقوالٍ انتشرت في ذلك الحين، تزعم أن المسيحية كانت سبباً في تردى وانحطاط الإمبراطورية الرومانية، وذلك لأن نهب روما شكل صدمة كبيرة للرومان، إذ إن المدينة كانت آمنة لقرون طويلة لدرجة أنَّهم اعتقدوا أنها قادرة على صد أي خطر كان ، وانتشر اعتقادٌ غريب بأنَّ ذلك كان عقاباً إلهياً بسبب ترك الرومان للدين القديم ، واتّباعهم للديانة المسيحية .

ومن هنا أتى كتاب (مدينة الله) كاستجابة لهذه المزاعم والإدعاءات، حيث زعم أوغسطين بأن المسيحية ورغم كونها سبباً في نهب روما، إلا أنَّها كانت سبباً في نجاحها وازدهارها أيضاً.

تتمحور الفكرة الرئيسة للكتاب حول الصراع الذى كان قائماً طوال التاريخ البشرى بين "مدينة البشر"، من جهة، و"مدينة الله" من جهة أخرى، ويقرر القديس أوغسطين أن الصراع سينتهي بانتصار (مدينة الله) فى النهاية.

تمثل "مدينة الله"، البشر الذين تركوا وأهملوا ملذات ومتع الحياة الدنيا ، وذلك حتى يكرِّسوا حياتهم بأكملها للجهاد الروحى ، وتنفيذ الوصايا الإلهية الروحية ، بينما "مدينة البشر" من الناحية الأخرى وفى المقابل تمثل نوعية البشر الذين يلهون بالحياة الدنيا ، ومتعها الفانية الزائلة ونسوا الآخرة تماماً.

وترتكز مدينة الله التي تصورها القديس أوغسطين على نقطتين :
النقطة الأولى : وجود حقبتين زمنيتين تجمع بين كل من : المدينتين الأرضية والسماوية، الأولى من عهد قابيل أبن آدم الى عهد أبينا إبراهيم، وفيها كانت المدينتان ممتزجتين ومختلطتين تماماً .

النقطة الثانية : ما بعد إبراهيم، فالمدينة السماوية تمثلت باليهود، والأرضية شملت باقي الإنسانية، وكانت ذروتها الإمبراطورية الرومانية. والفاصل بين الحقبتين هو ظهور السيد المسيح. ويربط أوغسطين الخير بالروح ، والشر بالجسد، فقد فتح الأفق أمام ممارسة مزدوجة ومنقسمة علي ذاتها، ونتج عن هذه الإزدواجية في النهاية تقسيم العالم الي عالمين أو قسمين متعارضين تماماً مع أحدهما الآخر فنجد أن هناك قسماً يستمد وجوده وشرعيته من الروح والآخر من الجسد.

وهذان القسمان يقف وراءهما نوعان من الحب : حب الروح وحب الجسد، يقول القديس أوغسطين: هناك حبان يصنعان دولتين : حب الذات لدرجة احتقار الله تعالى وامتهانه ، وهو الذى يكون المدينة الأرضية البشرية العالمية. وحب الله لدرجة احتقار الذات وامتهانها الذى يكون المدينة المقدسة السماوية الروحية ذات القانون الأزلى الأبدي، ورئيسها وزعيمها السيد المسيح ذاته، وتجذب المواطنين والبشر من كل الأمم والشعوب، وتشكل مجتمعاً من المهمشين من جميع اللغات بدون أى تفرقة بينهم، وأيضاً دون الإهتمام بالإختلافات التى تنشأ بسبب تعارض أو إختلاف الأخلاق أو العادات أو القوانين، وتهدف مدينة الله إلى حفظ السلام الأرضي.

وقد أثار كتاب مدينة الله العديد من الإشكاليات الأخلاقية واللاهوتية على السواء، كما ساهم فى تنظيم وتشكيل العلاقة بين الكنيسة والدولة في العصور الوسطي. الذى فصل القديس بينهما ، وذلك لأنه اعتبر أن الكنيسة هي (مدينة الله)، وأن الدولة هي مدينة الأرض أو (مدينة البشر).

وبذلك اقام الفصل بين الكنيسة والدولة علي المبدأ القائل بثنائية الخير والشر وهو مبدأ أخلاقي، وذلك لأن القديس أوغسطين بإقراره أن الدولة أو المدينة الأرضية البشرية نشأت بمثابة نتيجة لحب الذات لدرجة احتقار الله تعالى، يكون بذلك قد استبعد أية شرعية أخلاقية لها. ولذلك فإنه ينبغى عليها أن تخضع وتمتثل لمدينة الله مدينة الخير المطلق ، وتذوب فيها حتى لا يظل الشر قائماً فيها يتآكلها على الدوام.

يعتبر ظهور الإمبراطورية البيزنطية بمثابة برهان ودليل قوى علي ضرورة وجود مملكة الله ، والتى يجب تأصيل تاريخها، وتحديد مسؤولياتها، وتنظيم علاقاتها، وبعد ذلك تعميمها نموذجاً عالمياً شاملاً لكل الأمم والشعوب بزعامة المسيح الذي هو عقل الله وكلمته.

نشأت إزدواجية حادة وعنيفة فى القيم والمبادئ الإنسانية تأرجحت بين الخير والشر ، وذلك منذ بدء الخليقة من أبينا آدم، فبعد آدم ثم خلق أمنا حواء من أحد ضلوعه تأكيداً على مفهوم الوحدة. فلما أخطأ آدم أصبح يرمز لوحدة الإنسانية الأصلية ولازدواجها إلى عالمين أو كيانين أو مدينتين هما مدينة الله التي يسيطر عليها ويتحكم فيها حب الله، ومدينة الأرض أو الشر التي يسيطر عليها ويتحكم فيها حب الدنيا، ذلك الحب الذي أفسد إرادة آدم الطيبة التي فطره الله عليها، فلحقت به الإزدواجية بين مبادئ الخير والشر.

وتجلت هذه الإزدواجية بشكل واضح على إثر قتل قابيل لهابيل، إذ أصبح هناك شخصان متمايزان يمثل كل منهما إحدى المدينتين، بعد أن كانت الإزدواجية حبيسة في آدم أبو الإنسانية ، وتاريخ الجدل بين عنصري هذه الإزدواجية الإنسانية.

بحث القديس أوغسطين في أصل العالم كما تابع تاريخ المدينتين الخيرة والشريرة كما هو مذكور في الكتاب المقدس ، وذلك من حيث بداية ونشأة ونمو وتقدم المدينتين، فتناول بالبحث والتحليل (سفر التكوين) بداية من قصة (قايين) ، و(هابيل) وحتى قصة نوح (Noah) النبى وحدوث الطوفان، وأيضاً من أبينا إبراهيم أبى الأنبياء حتى نهاية العالم ، كما تأمل أيضاً في نهاية إبليس زعيم المدينة الأرضية الدنيوية حيث ينال العقاب الأبدي ، ثم بحث فى نهاية (مدينة الله) فى نهاية العالم حيث السعادة الأبدية للقديسين مواطنى المدينة السماوية.

إشكالية الدراسة :

تحاول هذه الدراسة التعرف على العلاقة القائمة بين كل من السياسة والأخلاق فى فكر القديس أوغسطين ، وذلك من خلال بيان أوجه الإختلاف القائمة بين المدينة السماوية (مدينة الله) الروحانية السامية ، وبين المدينة الأرضية (مدينة الشيطان) ، وأسباب الصراع القائم بين مواطنى وسكان المدينتين ، والنتيجة النهائية المحتومة لهذا الصراع الأزلى بينهما.

تساؤلات الدراسة :

١ – ما الأشكال المختلفة للمدن التى قسمها القديس أوغسطين فى كتابه (مدينة الله)؟
٢ – متى بدأ تاريخ الصراع والانقسام بين المدينتين طبقاً لما ورد فى الكتاب المقدس فى (سفر التكوين) على وجه الخصوص ؟
٣ – ما الفرق بين مواطنى كل من : (مدينة الله) السماوية و(المدينة الأرضية) الدنيوية من حيث السبل والغايات والأهداف ؟
٤ – ما أسباب الصراع الأزلى والأبدى بين المدينتين ؟
٥ – ما النتيجة النهائية المحتومة التى وضعها القديس أوغسطين لهذا الصراع ؟
٦ – كيف انعكست العلاقة بين السياسة والأخلاق كما تصورها القديس أوغسطين فى مؤلفه (مدينة الله) على العلاقة بين الكنيسة والدولة فيما بعد وطوال العصور الوسطى ؟

منهج الدراسة :

أستخدم فى هذه الدراسة عدة مناهج منها المنهج التاريخى ، والمنهج التحليلى ، والمنهج النقدى حيث إنه يستقيم تماماً مع موضوع الدراسة.

تُعد فلسفة القديس أوغسطين [*] (Saint Augustine) ذروة وقمة الفلسفة المسيحية عند آباء الكنيسة اللاتينية والرومانية على السواء ، وذلك خلال العصر الكنسى بداية من القرن الثانى الميلادى إلى سقوط الأمبراطورية الرومانية، وبالتحديد عصر القديس جريجورى الكبير (Gregorie Le Grand) ، وذلك لأن القديس أوغسطين هو الجامع لكل التفكير المسيحى السابق عليه فى القرون الأربعة الأولى وما بعدها فى القرنين الخامس والسادس ، وخاصة لدى آباء الكنيسة اليونان ، وقد بقيت الأوغسطينية بمثابة التفكير المسيحى التقليدى، وحتى نهاية عصر الآباء، وفى التفكير المسيحى خلال العصر المدرسى المتأخر.

ومن خلال شرح بويس (Boece) ، لفلسفة أرسطو (Aristotle) فى أواخر نهاية العصر الكنسى استطاع تحويل الفكر المسيحى من الأفلاطونية إلى الأرسطية ، وكان ذلك التحول الجذرى بمثابة التمهيد لظهور الفلسفة المسيحية بمعناها الاصطلاحى ، وهى دراسة الفكر المسيحى فى العصور المتأخرة بعد نشأة المدارس والجامعات ونقل الحضارة اللاتينية إلى الشمال أثناء بناء الإمبراطورية الكارولنجية (Carolingen) والتى تعد الوريث الشرعى للإمبراطورية الرومانية.[1]

مكانة المسيحية فى روما :

الجدير بالذكر أنه حين بدأ القديس أوغسطين فى كتابة مؤلفه الضخم (مدينة الله)، كانت المسيحية مستمتعة لمدة قرن كامل بمكانة ممتازة فى الإمبراطورية الرومانية ، وذلك

(*) – هو أوريليوس أوغسطينوس أشهر آباء الكنيسة اللاتينية، (١٣ نوفمبر ٣٥٤ – ٢٨ أغسطس٤٣٠م) ، كاتب وفيلسوف من أصل أفريقى – لاتينى.

معنى اسمه الملك الصغير، عاش شابا مضطربا، واهتدى إلى المسيحية بفضل مواعظ القديس أمبروسيوس. وهو لاهوتى، وفيلسوف، وكاتب كبير. قاوم البدع : اليونانية والبيلاجية، وحاول التوفيق بين العقل والإيمان. من أهم آثاره "الإعترافات " و"مدينة الله" و"النعمة" ، ويعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة فى المسيحية الغربية.

تعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديسا وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك ألرهبانى الأوغسطينى. يعتبره العديد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص. وتعتبره بعض الكنائس الأرثوذكسية مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قديساً. فلسفته الأولى تنم عن تسلسل رائع يصل إلى اكتشاف الله، وهى تعبر عن جهد إيمانى مسيحى يفتش كى يطلق العنان لتعقل الإيمان لمحتواه بواسطة تقنية فلسفية سماتها الأساسية مستوحاة من الأفلاطونية المحدثة ، وبالتحديد من أفلوطين.

انظر :

رونى إيلى ألفا ؛ موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب ؛ ج١؛ دار الكتب العلمية ؛ ط١ ؛ بيروت ؛ لبنان ؛ ١٩٩٢م ؛ ص ص١٥٥/١٥٦.

(1) – حسن حنفى ، نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط (أوغسطين – أنسلم – توما الأكوينى) ، ط٢ ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨م ، ص٣.

بفضل الأمبراطور قسطنطين الذى يعد أول إمبراطور رومانى مسيحى ، وكانت له السلطة الكاملة على الجزء الغربى من الإمبراطورية ، وذلك من خلال انتصاره فى معركة جسر ميلفيا ى عام ٣١٢م ، كما كان هناك تسامح رسمى كبير تجاه العقيدة المسيحية نمت وتوسعت خلاله الكنيسة بصورة هائلة فى تلك الفترة. (١)

فصول الكتاب :

يشتمل كتاب مدينة الله " La Cité De Dieu" على اثنين وعشرين فصلاً أراد فيها صاحبها أن يبين فضل الآخرة على الحياة الدنيا ضمن منظور عقدى مسيحى. كما يؤول فيه كتاب الإنجيل من خلال اجتهاداته وتجاربه الدينية والروحانية، متأثرا في ذلك بالفلسفة الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة والعقيدة المانكية.

ويحوى المؤلف آراء عميقة وحصيفة فى مجال فلسفة التاريخ وتأريخ اللاهوت ، وتفسير الإنجيل وتأويله. وقد انتشرت آراؤه الدينية والفلسفية بين المفكرين واللاهوتيين المسيحيين فيما بعد، وعرفت تصوراته الدينية وتفسيراته المذهبية بالنظرية (الأوغسطينية).

وسيهتم المسيحيون فيما بعد بأفكار أوغسطين التى طرحها فى كتابه "مدينة الله" ، وخاصة فكرة الخطيئة، وفكرة الحكم الحر، ولاهوتية التاريخ. ولابد أن نذكر أن أوغسطين قد حارب الدوناتية ، والمانكية ، والآرية ، والبيلاجية ، واليهودية وكل الدعوات الوثنية والدينية المنحرفة، وحاول في كتاباته جاهداً التوفيق بين العقل والإيمان.(٢)

كلمة القديس أوغسطين للرومان :

يوجه القديس أوغسطين حديثه إلى الرومان فى مؤلفه مدينة الله (City Of God) المجلد الأول بالتحديد قائلاً : "إن شعوب الشرق كلها تبكى على روما فى ذهول وحداد تام بينما أنتم تملأون المسارح وتركضون إليها ، وهذا الداء بمثابة آفة للنفوس الذى يتمثل فى القضاء على الشرف والنزاهة والاستقامة.

فكان (شيشرون) يخشى على الرومان من أن يفسدهم الحظ السعيد ، ويهلكهم لذلك رفض تحريرهم من خوف قرطاجة، لأنه لم يؤمن بسعادة مدينة أسوارها قائمة، بينما أخلاق بنيها خربة فاسدة. ويرى أن الرومان يتنصلون من الشر الذى يفعلونه، ويعزونه إلى المسيحية، فهم فى حالة الأمن يحبون الفوضى البعيدة عن العقاب ، ولا يحبون سلام الجمهورية فأفسدهم الازدهار ، كما عجز الضيق عن إصلاحهم.

---

(1) – Gerad O Daly , Augustine's City Of God-A Reader Guide , Clarendon Press Oxford , U.K. , 1999 , P ; 1 .

(2) - Https://Ar.wikipedia.org/Wiki/Augustine

أراد شيشرون العظيم أن يكون الخوف من العدو حافظاً لهم من السقوط فى الرذيلة، فإذا بهم وقد سحقهم العدو وهزمهم يتمرغون فى أوحال الرذيلة حتى أصبحوا أشر وأشقى جميع الناس. إن الله يدعوكم إلى الإصلاح من أنفسكم من خلال التوبة والندم حتى تتخلصوا من غضب اعمرائكم إلى مبانى شهدائه".[١]

القيم الأخلاقية التى قدمها شيشرون وآراؤه حول الحياة الأخرى كانت هى نفسها حجج وأدلة القديس أوغسطين ، كما يقر بأن تلك القيم تحققت فى الكنيسة المسيحية، كما أنها أعدت الذين عاشوا بها لتقديم المساعدة والمعونة الإلهية لغيرهم وليعيشوا ويسكنوا فى المدينة المقدسة الأزلية ، (وهو يستخدم حجج شيشرون لحب الوثنيين التقليديين له وتبجيلهم له كما كانوا يعتبرونه بطلاً). [٢]

المدينتان : المدينة الأرضية ، والمدينة السماوية :

على الرغم من أن الفلسفة الاجتماعية والسياسية للقديس أوغسطين ظهرت واتضحت – بالكامل – في كتابه (مدينة الله)، فإن فكرة المجتمعين المختلفين للإنسان فصلت سابقاً في كتابه (العقيدة الحقة)، حيث الناس التَّقية ، التي تحب الله ، والناس الأخرى ، التي تحب الآلهة الرديئة هم الناس الأشرار. ففي سفر المزامير نجد أن المدينة المقدسة تدعى أورشليم ، والمدينة الشريرة تدعى بابل المزمور (٦٤ :١-٢). القديس أوغسطين يأخذ أورشليم لترمز إلى صورة السلام ، وفى فقرات طويلة فى كتابه مدينة الله يلخص أوغسطين ذروة ، وخلاصة معظم تفكيره في السلام، مع استنتاجه بأن جوهر السلام هو حالة الهدوء أو السكون.[٣]

تكونت هاتان المدينتان تبعاً لنوعين مختلفين من الحب :

أولاً : الحب الأرضى : ويحدث من خلال حب الذات الذى يصل إلى درجة امتهان الله تعالى. ثانياً : الحب السماوى : من خلال محبة الله إلى درجة امتهان الذات واحتقارها.

الحب الأرضى يمجد ذاته ويطلب مجد الإنسان ، أما الحب السماوى، فإنه يمجد الله ويعظمه، ويطلب مجد الله الشاهد على الضمير. النوع الأول يرفع رأسه فخوراً بمجده الخاص، أما الثانى فيقول لله مع الملك داوود المرنم : (الرب مجدى ورافع رأسى).

---

(1) – القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد الأول ، الكتب من (١-١٠) ، نقله إلى العربية : الخور أسقف يوحنا الحلو ، ط٢ ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٦م ، ص ص٥٦-٥٧.

(2) - Gerad O Daly , Augustine s City Of God-A Reader Guide , P ; 25 .

(3) - Robert L. Arringston , The World's Great Philosophy , Blackwell , U.S.A , 2003 , P;28.

فى النوع الأول أيضاً يحكم الأمراء شعوبهم من خلال حب الحكم ، أما فى النوع الثانى فإن الأمراء والرعايا أو المواطنين يخدمون بعضهم البعض فى محبة. النوع الأول يطيع ، والثانى يفكر ويهتم بالجميع ، الأرضى متعته وسعادته فى قوته الخاصة مجسدة فى الأشخاص الذى يحكمهم ، ولكن النوع السماوى يقول لإلهه : (أحبك يا ربى يا قوتى).[١]

ويتساءل القديس أوغسطين حول دور ووظيفة الإيمان فى المدينة الأبدية ، وعلاقته بسعادة الإنسان فى حياته على الأرض ؟ فيقول إن محاولة الإجابة عن هذا السؤال من كافة جوانبه قد اخذ منه الكثير من الجهود، وذلك لأن الحركة المثالية لها فوائد هائلة جداً لراحة وسعادة الإنسانية، كما أنها حتى لحظتنا هذه تعد مركزاً لمعظم الطاقات الأخلاقية.[٢]

حكماء المدينة الأرضية :

يحيون طبقاً لإنسان له رؤية أو تصور ما لفائدة أجسامهم أو نفوسهم أو كليهما معاً. وهؤلاء يقول عنهم الكتاب المقدس : (لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله ، بل حمقوا فى أفكارهم ، وأظلم قلبهم الغبى، وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى ، والطيور ، والدواب ، والزحافات لذلك أسلمهم الله أيضاً فى شهوات قلوبهم إلى النجاسة ، لإهانة أجسادهم بين ذواتهم الذين استبدلوا حق الله بالكذب ، واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق ، الذى هو مبارك إلى الأبد. آمين). (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١ : ٢١ –٢٥).

حكماء المدينة السماوية (مدينة الله):

لا يوجد بها حكمة بشرية، ولكن بها فقط الحكمة الإلهية ، والتى نكتسبها من خلال الصلاة والتعبد للإله الحقيقى ، وتبحث عن مكافآتها فى مجتمع القديسين والملائكة المقدسين كما فى الإنسان المقدس أيضاً ، لأن : (الله هو الكل فى الكل) (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥ : ٢٨).[٣]

---

(1) – Saint Augustine The Bishop Of Hippo , The City Of God , Part (2) , Book (2) , Volume (II) , Translated By : The Rev. Marcus Dods , M. , T&T Clark , London , New York , P ; 47 .

(2) – A.M., Fairbairn , The City Of God-A Series Of Discussions In Religion , Hodder And Stoughton , London , P ; 360 .

(3) - Saint Augustine , The City Of God , Part (2) , P ; 48 .

تاريخ المدينتين :

ينقسم إلى وقتين يفصل بينهما ظهور السيد المسيح، فنجد أنه من قايين إلى إبراهيم كانت المدينتان مختلطتين ، وعند مجئ أبينا إبراهيم أبو الآباء تميزتا سياسياً : فالمدينة السماوية يمثلها بنو إسرائيل ، والأرضية تشمل باقى البشرية ، حتى وصلت إلى ذروتها فى الإمبراطورية الرومانية.

ولكن رغم ذلك فنلاحظ أنه كانت تجمعهما وحدة ما بسبب تقدمهما معاً نحو السيد المسيح ، مع اختلاف هذا التقدم بالطبع، فيتحقق ذلك فى إسرائيل بتدخل الله تدخلاً متصلاً يزداد وضوحاً والحاحاً بمرور الزمان ، كما يتحقق فى المدينة الوثنية من خلال المشاركة غير المقصودة وغير المباشرة فى التمهيد للمسيحية سياسياً وعقلياً ، ويحدث ذلك بناء على تدبير العناية والمشيئة والحكمة الإلهية.(١)

علاقة المدينة السماوية بالله :

نجد لها تشابهاً فى علاقة الإنسان بالله. وذلك لأن المدينة مخصصة للأبناء الخاضعين بحب واقتناع للإرادة والمشيئة الإلهية ، والتى تعبر عن حب الأب ورعايته لأبنائه كما تعبر أيضاً عن طاعة المواطنين لحاكم المدينة، لأن الطاعة هى بمثابة واجب الابن نحو أبيه، وهذه الألفة والتقارب بيننا نحن المؤمنين وبين الله هى السر فى قوتنا.(٢)

اليأس والإحباط وتأثيرهما في الحياة الإنسانية:

يرى أوغسطين أن اليأس ليس له أية قوة على الإطلاق ، فالقوة الحقيقية هى فى الأمل والرجاء، كما أن طاقة الحاضر تعمل للخير حين تؤمن بمستقبل أفضل وأسعد. للإيمان بالمستقبل الأفضل لابد للإنسان من الإيمان بالله. فطاقات الكون ينبغى أن تعمل من أجل تحقيق الخير والصلاح أينما كان ، ومن الناحية الأخرى نجد أن التشاؤم الذى يرفض وينكر التفاؤل والأمل والرجاء لا يسمح للإنسان بأية قوة أخلاقية، وهو عاجز عن خلق الآمال التى تتحول إلى أفعال وطاقات خيرة صالحة، والتى تعتبر أعظم القوى التنموية فى التاريخ.

ومن خلال هذا الرأى يمكننا إن نقول إن إيمان الإنسان بالمدينة الإلهية السماوية بكل جوانبها كوّنت الأخلاقيات السامية، وأيقظت الحماسة، وألهمت الآمال، وطورت الطاقات، كما أنها زادت السعادة، ووسعت من الحريات، وثبتت الحق والخير، وأسرعت من نمو الجنس البشرى.

---

(١) – يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، ص ٤٩.

(2) - A.M., Fairbairn , The City Of God-A Series Of Discussions In Religion , P ; 369 .

ولكن هذه الجوانب من الممكن ألا نتمكن من لمسها بصورة مباشرة والشعور بوجودها، ذلك أن اهتمامنا الأساسي ينصب في المقام الأول على قيمة المثال للإنسان الفرد وأفعاله ووظيفته في الحياة العادية.[١]

امتداد (مدينة الله) :

تمثلت (مدينة الله) مادياً في شعب إسرائيل ، ثم تجاوزته فشملت كل المشاركين في الحركة الموجهة للعالم نحو السيد المسيح ، ومن خلال المسيح ينتهي التمايز السياسي بين كلتا المدينتين، فتختلطان ثانية، وتعود كل منهما وحدة معنوية لها أعضاء في كل الإنسانية، فالمدينة السماوية تمثل المختارين في الماضي والحاضر والمستقبل ، وكما كان هناك أبرار وصالحون قبل مجئ السيد المسيح وتكوين الكنيسة ، الآن أيضاً يوجد خارج الكنيسة ومن ضمن مضطهديها حتى مختارون مستقبليون سيخضعون لها قبل مماتهم.

كما أنه يوجد كثيرون في الكنيسة نفسها لن يكونوا من المختارين ، فالكنيسة هي الجماعة البشرية التي تبني وتنمي المدينة السماوية، وهذا هو هدف وغاية تأسيس الله للكنيسة ووظيفتها في المقام الأول.

الاختلاط بين المدينتين:

يؤكد القديس أوغسطين على أن هذا الإختلاط ظاهري، وذلك بالرغم من التقاء المدينتين في الحياة الحاضرة ، ومشاركة أعضاء المدينة السماوية في مزايا المدينة الأرضية، لأن الخيرات المادية بالنسبة إلى مواطني المدينة الأرضية عبارة عن غايات يتنازعون عليها ويستمتعون بها لذاتها ، ولكنها تختلف بالنسبة إلى مواطني المدينة السماوية، فهي عندهم مجرد وسائل لصيانة حياتهم وتحقيق الفضيلة والكمال الروحي. وبالتالي فإن الدولة أقل وأدنى من الكنيسة، كما أنها تخضع لها باعتبار الموضوع والغاية.[٢]

يرى القديس أوغسطين أنه بالنسبة إلى الآباء الأولين للجنس البشري كان (قايين) هو أول إبن لآدم وحواء، وكان ينتمي إلى (المدينة البشرية) ، ومن بعده ولد (هابيل) البار أخيه الذي كان ينتمي إلى (مدينة الله) السماوية.

يقول بولس الرسول : (لكن ليس الروحاني أولاً بل الحيواني، وبعد ذلك الروحاني الإنسان الأول من الأرض ترابي، الإنسان الثاني الرب من السماء). (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥ : ٤٦ –٤٧).[٣]

---

(1) - A.M., Fairbairn , The City Of God-A Series Of Discussions In Religion , P ; 361 .

(٢) – يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص٤٩.

(3) - Saint Augustine The Bishop Of Hippo , The City Of God , Part (2) , P ; 50 .

خضوع المملكة الأرضية لمملكة السماء :

تخضع مملكة الأرض لمملكة السماء، وذلك لأن كل سلطة مصدرها وأصلها وأساسها هو الله ذاته، وأن كل النظام الاجتماعى قائم ومستقر تبعاً لإرادة الله، فمبادئ المجتمع وتنظيمه ليستا نابعة من البشر، ولكن من الحكم الإلهى.[١]

بداية المملكة الأرضية وتأسيسها :

بدأت المملكة الأرضية من خلال مملكة بابل (Babilon) ، وملكها ومؤسسها الشهير نمرود ، يقول الكتاب المقدس : (كوش ولد نمرود الذي بدأ يكثر الشر لأنه سفك دمًا بريئًا، وتمرد على الرب) .(سفر أخبار الأيام ١: ١٠) ، (وكان جبار صيد أمام الرب ، الذى ابتدأ يكون جباراً فى الأرض). (سفر التكوين ١٠: ٨).

وقد كان نمرود (Nimrod) ، ابن كوش ابن حام (كنعان) الابن الأوسط للنبى نوح البار ، ملك أرض شنعار، ومؤسس مملكة بابل القديمة ، كما كان أول من أسس مملكة فى تاريخ البشرية القديمة. ويبدو من إشارات عديدة أنه كان شخصية عدوانية شريرة ، ويقال عن بابل إنها (أرض نمرود) ، كما ترتبط بابل فى الكتاب المقدس، باستمرار – سواء رمزيًا أو نبويًا – بالنظام الفاسد دينيًا وأدبيًا ، كما أنه هو الملك الذى ابتدع الإستعمار.[٢]

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كان هناك فى البداية لغة واحدة لجميع الأمم والشعوب ، يقول الكتاب المقدس فى ذلك : (وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة).
(سفر التكوين١١ :١).

ولكن تغيرت تلك الوحدة وذلك حين : (وحدث فى ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض : هلم نصنع لبنا ونشويه شياً ، فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا : هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء ، ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض).
(سفر التكوين ١١ :٢-٤).

ويقول أيضاً : (فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما وقال الرب : هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه، هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض

---

(١) – فريال حسن خليفة ، المجتمع المدنى عند توماس هوبز وجون لوك ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ٢٠٠٥م.
(2) –Saint Augustine The Bishop Of Hippo , The City Of God , Part (2) , P ; 108 .

فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعى اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض). (سفر التكوين ١١ : ٥-٩). وبذلك تفرق البشر فى كل الأرض ، ليعمروها من مشارق الشمس إلى مغاربها.[١]

مدينة بابل كنموذج للمدينة الأرضية :

وهى تعنى اضطراب أو تشويش أو بلبلة وأسسها (نمرود) لمجده الذاتى وكبريائه ، وذلك حتى يحموا أنفسهم إذا حدث طوفان جديد، وكأنهم لم يصدقوا وعد الله بعدم حدوث أى طوفان آخر على الأرض مرة ثانية ، لذلك عاقب الله نواياهم السيئة وكبرياء قلوبهم ، كما نجد أن الشعوب قُسمت تبعاً للغتهم حسبما رأى الرب ، وكما حسن فى عينيه، وحسب مشيئته المخبأة المخفية عنا لحكمته.[٢]

مع الإبن السادس لكوش ، نجد بدايات الإمبراطورية ذات القوة الوحشية. إن تاريخ كل من مدينتى بابل ونينوى ملئ بالأحداث الناتجة عن الرغبات الأنانية والمجردة من المبادئ، وذلك فى سبيل الحصول على الممتلكات أو القوة. ونمرود هو أول جبار حرب يتم ذكره فى الكتاب المقدس وقد بهرت كفاءته فى القتال أعين الناس ، ويمثل الطموح المجرد من المشاعر الإنسانية.

يرى القديس أوغسطين أن المسيحية هى ذروة تطور الإنسان من الناحية الأخلاقية والروحية، وبالتالى فإنه لا يمكن وجود العدالة من دون وجود المسيحية.[٣]

واذا كانت مهمة الدولة هى تحقيق السعادة للمواطنين فلابد من ارتباط الكنيسة مع الدولة، مما يؤدى إلى قيام السلام والأمان فى الأرض.[٤]

ويشار إلى السيد المسيح وكنيسته إلى أنها (مدينة الله) على الأرض، والتى تمتد منذ البداية الأولى المبكرة للتاريخ البشرى ، وذلك منذ أن بارك نوح ابنيه (سام ويافث) ولعنه للإبن الأوسط (حام أو كنعان) ، وحتى ابراهيم أو إلى أكثر من ألف عام لم يكن هناك ذكر لأى أشخاص أبرار صالحين عبدوا الله ، وكان الهدف من تأريخ ذلك فى الأسفار المقدسة

---

(1) - Ibid , P ; 111.

2) – Ibid , P ; 113 (.

(٣) – نجدت صبري ئاكرة يى ،الإطار القانونى للأمن القومى : دراسة تحليلية ، ط١ ، دار دجلة ، عمان ، المملكة الأردنية الهاشمية ، ٢٠١٠م ، ص٣٠.

(٤) – ندى ذبيان ، العنف المقنع ، دار رسلان ، دمشق ، سورية ، ٢٠١٣م ، ص٧٤.

للأنبياء من خلال الروح القدس الذى فيهم ليس فقط تسجيل الماضى ، ولكن وصف المستقبل أيضاً.[١]

من خلال أبناء نوح النبى الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث، وأبنائهم وأحفادهم الثلاثة والسبعون ، نجد أنهم لم يكونوا مجرد أفراد عاديين ، ولكنهم كانوا أمماً وشعوباً لكل منهم أرضه ولغته وقبيلته الخاصة به دون غيره كما نقرأ فى الكتاب المقدس فى عهده القديم. (هؤلاء بنو سام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم حسب أممهم، هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأممهم. ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان).
(سفر التكوين ١٠ : ٣١- ٣٢).[٢]

أعطى الله وعدين لأبينا ابراهيم أبى الأنبياء الوعد الأول : إن شعب إسرائيل حسب الجسد يكونون أبناءه ، الوعد الثانى : إن كل الشعوب والأمم على اختلافها يكونون أبناءه أيضاً ، ولكن بحسب الإيمان.[٣]

ويعود أصل المدينة الإلهية إلى الكتابات اللاهوتية المقدسة ، بينما المدينة الأخرى تعود إلى الكتابات الكلاسيكية للثقافة والآداب اليونانية والتى تأثر بها الرومان أشد التأثر، وكان ذلك فى معظمه تأريخاً أخلاقياً وسياسياً أيضاً من جهة أخرى.

ومن المعروف بالطبع أن (موسى النبى) أتى ليس قط قبل هوميروس وهزيود شعراء الإغريق القدماء ، ولكن أيضاً قبل ما يطلق عليه (الأشعار اللاهوتية) ، وطالما أن هومر أتى قبل طاليس زمنياً وبقية (العظماء السبعة) الذين سبقوا فيثاغورس وسقراط وأفلاطون. واتبعوا فلاسفة النمط الذاتى، فكانت الأولوية للثقافة والتقاليد العبرية اليهودية على الثقافة اليونانية الإغريقية والتى أكدت على تبويب وجدولة الأحداث التاريخية ، وقدمت تسجيلات لأمم وشعوب مختلفة متنوعة ، وذلك فى أعمدة متوازية متشابهة قد صممت لتوضح وتظهر هذا التأكد.[٤]

---

(1) - Saint Augustine The Bishop Of Hippo , The City Of God , Part (2) , P ; 107 .

2) - Ibid , P ; 110 (.

(3) – Ibid , P ; 165 .

(4) – Wetze James , Cambridge Critical Guides Augustine's City Of God-A Critical Guide , Cambridge University Press , U.K. , 2012 , P ; 25 .

أسباب الصراع بين المدينتين :

يصرح القديس أوغسطين بأن المدينتين: الأولى مدينة الله، والثانية العالمية الأرضية بكل ما للكلمة من معنى، المدينة الأولى هى الآن غريبة ولديها العديد من الأعداء منذ بدايتها الذين فضلوا آلهتهم الوثنية الغريبة على الله الإله الحقيقى الوحيد ، وهو الذى خلقهم وأوجدهم كما سمح لهم أيضاً بتأسيس مدينتهم الخاصة ، وهم يكرهون المسيحيين ويحقدون عليهم للغاية بصورة كريهة ومميتة دون سبب أو داع لذلك.

يقول أوغسطين: "ولقد عنيت واهتممت بتوضيح بداية نشأة وتأسيس كل من المدينتين بداية من الإنسان الأول آدم ، وأبينا ابراهيم أبى الآباء مروراً بملوك بنى إسرائيل وحتى السيد المسيح ذاته بالجسد".(١)

المدينة الأرضية صنعت لنفسها آلهة زائفة لتخدمها وتعبدها وتقدم لها التقدمات والأضاحى. بينما المدينة السماوية لا تصنع الآلهة الزائفة ولا تعبدها لأنها تعلم أنها هى ذاتها مصنوعة ومخلوقة بأيدى الإله الحقيقى الذى تخدمه وتعبده وحده. وتستمتع المدينتان بالخيرات الأرضية الجيدة، وكلتاهما معرضتان للشرور الزمنية المؤقتة ، ويستمر ذلك حتى ينفصلان أخيراً فى الحكم الإلهى الأخير، فتأخذ كلتاهما ما تستحقان حسب ما فعلتا سواء خيراً أم شراً. ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية.(٢)

غضب الرومان من المسيحيين :

وبالتفكير حول طبيعة الآلهة التى يعتقد الرومان أنهم يحمونهم ، وائتمنوهم بكل سعادة على مدينتهم، فليس هناك وهم مثير للشفقة يمكن تصوره أكثر من هذا الهراء ، والآن من المعروف أن الوثنيين غاضبون منا ، وذلك لأننا نتحدث بصراحة تامة بخصوص آلهتهم ومعبوداتهم المزعومة ، والغريب فى هذا الأمر أنهم لا يشعرون بأى غضب على الإطلاق تجاه كتابهم وشعرائهم ، والأكثر من ذلك نجد أنهم يصلون إلى درجة إعطائهم الكثير من الأموال حتى يُعلّموا الناس ويلقونهم هذا الهراء ، وذلك لاعتقادهم بأن مثل هؤلاء المعلمين يستحقون تلك الأموال ، وأيضاً التبجيل العام من الناس.(٣)

---

(1) –Op. Cit. , P ; 217 .

(2) - Saint Augustine The Bishop Of Hippo , The City Of God , Part (2) , P ; 292 .

(3) – Saint Augustine , The Fathers Of The Church , Translated By ; Demetrius B. Zema , The Catholic University Of America Press , U.S.A. , 2008 , P; 21 .

معاناة مواطنى المدينتين :

ويقر أوغسطين بأن كلاً من الأبرار والأشرار من البشر سوف يعانى بعدالة من التجارب والآلام المؤقتة البار كالشرير ، وذلك لأن الأبرار أو الصالحين لن يُعاقبوا أو يُعذبوا فى نهاية العالم حين تقع يد الله الثقيلة عليهما كليهما ، لذا فعليهم تذوق الأشياء المريرة فى هذه الحياة الأرضية لأنهم أحبوا البر والخير ، ورفضوا المشاركة فى الخطايا والآثام والشرور التى كان يفعلها الآخرون امامهم طوال الوقت.[١]

النظرية الإلهية :

الله يعطى للشعب الصالح حاكماً صالحاً وللشعب الفاسد حاكماً فاسداً كعقوبة لهم ، ولم يقاوم احد النظرية الإلهية فى العصور الوسطى ، وذلك بالرغم من الصراع بين البابا والملوك، لأن هذا الصراع لم يكن يمس جوهر الحق الإلهى للملوك ، ولكنه كان يمس السلطة وشكلها وكيفية تطبيقها، وهل تمارس السلطة بتفويض مباشر من الله إلى الملوك أم تمارس بطريق غير مباشر من خلال البابا الذى يمثل رأس وقمة السلطة الدينية.

كما ادعى الملوك أن الله اختارهم بشكل مباشر ، وذلك فى محاولة منهم للحفاظ على استقلالهم وزيادة قوتهم تجاه البابا ، ومن الناحية الأخرى نادى البابا بحقه فى تفويض السلطة الدنيوية للملوك للحفاظ على نفوذه وسيطرته عليهم.

وجاءت الصراعات والإصلاحات الدينية وظهور البروتستانتية ليؤكد الملوك على سلطتهم الدينية ، وذهب البعض منهم إلى أبعد من ذلك حيث أعلنوا بأنهم يحكمون كوكلاء لله على الأرض أو ظل الله على الأرض ، وقد استندت الأسر المالكة فى كل من : بريطانيا، وفرنسا ، وغيرها إلى نظرية الحق الإلهى كتأييد لاستمرار حكمها الملكى المطلق.[٢]

القديس أوغسطين باعتباره شخصية ريادية فى العالم المسيحى القديم آمن بأن الحياة الاجتماعية مقدسة لذلك، فالدولة هامة فى حياة الناس من أجل الحفاظ على المجتمع لذلك يجب على الملك أن يكون فى خدمة الإله. ورأى أن طغيان الحكام لا يبرر الثورة عليهم، وأنه على المسيحية التركيز على المحبة ، وطاعة الدولة فى المقام الأول.

---

(1) - Ibid , P ; 30 .

(2) – قحطان أحمد سليمان الحمدانى ، الأساس فى العلوم السياسية ، ط١ ، دار مجدلاوى ، عمان ، الأردن ، ٢٠٠٤م ، ص ص ١٧٣، ١٧٤.

ودعا أوغسطين إلى وحدة الكنيسة وعالميتها وعالمية سيطرتها على العالم المسيحى بأكمله ، وأن النور أو الوحى الإلهى هو الذى يعطى ويكشف للإنسان الحقائق فلا يمكن معرفة مدينة الله من مدينة الشيطان إلا من خلال سلطة الكنيسة المقدسة.[١]

أثر القديس أوغسطين فى السياسة:

على الرغم من أن القديس أوغسطين ليس مفكراً سياسياً فى المقام الأول وعقيدته لم تكن سياسية فى مجملها، ولكنه قدم الكثير فى ميدان الفكر السياسى، كما أثر بقوة فى المفاهيم السياسية والاجتماعية الوسيطية. مدينة الله – كان هدفها الأساسى الرد على تهم الوثنيين بأن المسيحيين أغضبوا آلهة روما ، ولكنها تخطت هذا النقاش وتحولت إلى تفكير على التاريخ وعلى المدينة فى الوقت نفسه.

فأتت بمثابة تأملات أكثر مما هى عقيدة ممذهبة تغذيها عواطفه ومشاعره المتقدة كمؤمن من جهة، واحساسات مواطن رومانى يشعر بالأسى والحزن والحيرة لتفتت وانهيار امبراطوريته الضخمة ، ويرغب فى إيقاف هذا التردى والانحطاط من جهة أخرى. وتعتبر مدينة الله بمثابة تركيب ومؤالفة بين حضارة العهد القديم والحضارة المسيحية كجسر يربط بين هاتين الحضارتين، ويفسر ويحلل عملية الانتقال ، كما تعد أيضاً نظرة شاملة على التاريخ الرومانى بأسره.

ونجد فى مدينة الله عدة أطروحات ومفاهيم قانونية واجتماعية لا تزال حديثة على سبيل المثال : القانون الطبيعى ، وشرعية السلطة ، والحرية الطبيعية للإنسان ، وأصل السلطة الإكراهية للحكم و، القانون العادل والشرعى ، وغيرها.

لم يفضل القديس أوغسطين شكلاً معيناً للدولة ولكنه اهتم بالتأكيد بأن علة وجود السلطة السياسية هى إقامة العدالة، وذلك لأنه : (دون عدالة ، ما الملك غير لص مغطى بالمجد ؟ وما المملكة غير كهف للصوص ؟). ويعتبر (مدينة الله) ثيولوجيا سياسية أكثر مما هو عقيدة فى علم السياسة.[٢]

---

(١) – محمد السنى ، الثورة وبريق الحرية ، الأدهم للنشر والتوزيع ، ٢٠١٧م ، ص٤٧.

(٢) – على زيعور ، أوغسطينوس مع مقدمات فى العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية ، ط١ ، دار إقرأ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م ، ص٢٢٤.

الصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية :

عندما نشأت الأزمة والصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية، بدأت فكرة الفصل بين السلطتين: السلطة الدينية بيد القساوسة ، ورجال الدين، والسلطة الدنيوية بيد القياصرة والملوك والأباطرة. ولكن السلطة الدينية أعلى وأهم شأناً من السلطة الدنيوية. واستمر الصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية فى القرون اللاحقة على ذلك أيضاً.(١)

وتقوم النظرية السياسية للقديس أوغسطين على التقسيم الثنائى للمدينة بمعنى البشرية بأكملها : مدينة الله ، والمدينة الأرضية (الدنيوية)، ويقيم هذا التقسيم على أساس الحب ، فهناك نوع أول للحب هو حب الذات لدرجة احتقار الله وهو ما أنتج المدينة الأرضية ، وحب الله لدرجة احتقار الذات وهو ما أنتج مدينة الله.

وهاتان المدينتان وجدتا سويا جنباً إلى جنب منذ بدء الخليقة ، وسيظلان معاً إلى يوم الدينونة ونهاية العالم.(٢)

أوجه الإختلاف بين المدينتين :

كان يرمز إلى مدينة الله بأورشليم السمائية (القدس) قبل مجئ السيد المسيح ، وهى اليوم تعبر عن طائفة المسيحيين، وتسمى بالمدينة السماوية، وتعمل على نشر العدالة ،وقد أوكل الله للكنيسة مهمة بناء هذه المدينة السماوية الروحية ، وهو يساعدها على النمو والبناء وهى تخضع لله.

تتصف المدينة السماوية بالهدوء ، والمسالمة ، وتفضل الحقيقة على المدائح الخادعة، تريد للغير ما تريده لنفسها ، تحب الجار وتقدره. إنها مدينة السيد المسيح ذاته : هو رئيسها، ومؤسسها، فهى مدينة الإيمان والشعوب التقية المؤمنة والأناس الورعين الصالحين.

أما المدينة الأرضية (البابلية) مدينة الشيطان : هى موطن السلطات السياسية بأخلاقها وتاريخها ومتطلباتها. ونلاحظ أن مدينة من هذا النوع لا يمكن ان تكون كاملة، وذلك لأنها تساند الظلم، كما أنها فى حالة حرب دائمة ومستمرة مع مدينة الله، إنها بابلية ترمز إلى البلبلة والاضطراب والتشويش، مدينة الشر وموطن الأشرار والحب الحسى الشهوانى غير النقى، وهى فى خلاف مع الله، كما أنها حسودة تود إخضاع واذلال الغير لإرادتها وأحكامها وتخضع الجار والقريب لأغراضها، وتجتمع تحت قيادة الملائكة الأشرار وستدوم فى النار الأبدية إلى الأبد.

---

(١) – محمد السنى ، مرجع سابق ، ص ٤٨.

(٢) – على زيعور ، مرجع سابق ، ص ٢٢٥.

المدينة الأرضية تعد بمثابة مدينة الشيطان والأسر بالنسبة إلى الناس الذين لا يحيون بالإيمان والتقوى، فهى مدينة الشعوب الوثنية.[١]

علاقة الكنيسة بالدولة :

حدد السيد المسيح العلاقة بين الكنيسة والدولة حين قال : ((اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله)) ، فحين يطالب قيصر بماله وضرائبه، يعطيه له ، وذلك ليس محبة لقيصر نفسه ولكن محبة لله ، فسواء كان الحاكم صالحاً أو طالحاً فإن سلطانه مستمد من الله كما قال القديس بولس الرسول ، وحتى إذا تسلط الحاكم الشرير ولم نعلم نحن الحكمة من ذلك، يكفينا أننا نعلم أن الله هو الذى سلطه ، ولكن حين يطلب قيصر ما هو لله وحده، يرفض الإنسان المسيحى إعطاءه له ، ليس بغضاً لقيصر ولكن حباً لله ، كما أنه لا يثور ويفضل تحمل الظلم فى صبر ، لذلك فلا خوف على الدولة من المسيحيين.[٢]

طبيعة العلاقة بين المدينتين :

لقد وجدت المدينتان فى بدء الزمان مع بعضهما البعض ، وهما يتعايشان معاً حتى مجئ الدينونة ، ولكنهما فى حالة حرب وصراع مستمر مع بعضهما البعض ثم تزول المدينة الأرضية وتبقى المدينة السماوية خالدة كخلود القديسين. ونلاحظ الاختلاف والتناقض الكبير بين كل من المدينتين ، وذلك لقيامهما على مبدأين متغايرين تماماً: حب الذات ، وحب الله ، ولكن هذا التضاد والتناقض لا ينفى امتزاجهما واختلاطهما فى العالم وتداخلهما مع بعضهما البعض.

والجدير بالذكر أن بنى اسرائيل فى البدء كانوا مثلى المدينة السمائية (أورشليم) وباقى الأمم والشعوب هم ممثلو المدينة الأرضية ، ولكن بمجرد مجئ السيد المسيح إنتهى ذلك التمايز والاختلاف وعادت المدينتان إلى الاختلاط معاً كما كانت منذ بدء الخليقة وحتى مجئ أبى الأنبياء إبراهيم.

وتجب الإشارة إلى أن المدينتين متلاقيتان حتى يومنا هذا، فتنتفع المدينة السماوية من خيرات المدينة الأرضية ، ويتشاركان، ولكن خيرات المدينة السماوية هى بمثابة وسائل لكسب العيش والحفاظ على الفرد والنوع ، وأيضاً تحقيق الخير الأسمى الذى هو السعادة الممزوجة بالفضيلة لدى القديس أوغسطين.[٣]

---

(١) – المرجع نفسه ، ص ٢٢٥.

(٢) – يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص٤٩.

(٣) – على زيعور ، مرجع سابق ، ص٢٢٦.

دور الكنيسة :

يتمثل دور الكنيسة فى الإشراف على الدولة بهدف توجيهها إلى الحياة الأخرى. ومن ناحية أخرى فإن الدولة تساعد الكنيسة على تحقيق أهدافها. ونلاحظ عدم الفصل بين الدولة والكنيسة وحرص القديس أوغسطين على الحفاظ على الأرتباط الوثيق بينهما تمام الارتباط. وذلك بغية تحقيق السلام على الأرض.[١]

تلاميذ القديس أوغسطين :

من الضرورة بمكان التنويه إلى أن تلاميذ القديس أوغسطين من بعده هم الذين وسعوا الهوة بين كل من المدينتين لدرجة أنهم جعلوا من المدينة الأرضية مدينة (للشيطان)، أما هو فقد عمل على التخفيف من حدة هذه الإثنية حين أقر بأن (الله) هو الذى يميز بينهما ، وبأن المدينة الأرضية ليست كلها سيئات ونقائص، وأن ما يعيبها هو أن أمجادها زائلة وغير دائمة من فخار وسلطان وخيرات ، كما أن مزاياها ليست كمزايا وحقائق المدينة السماوية.[٢]

الله ذاته هو مصدر السلطات :

يقر القديس أوغسطين بأن الله هو مصدر ومبدأ كل سلطة حتى فى المدينة الأرضية ذاتها ، فلا سلطة لشخص على آخر بموجب القانون الطبيعى، فالسلطة عبارة عن تفويض إلهى، ولكن ممارسة السلطة قد تكون من خلال الحظ أو الصدفة أو الوراثة أو من خلال الإنتخاب.

فالله لا يعين هذا النظام أو ذاك من الحكم، ولا هذا الرئيس أو غيره، وذلك لأن هذه الأمور كلها تفصيلية ، أما المهم فيها هو جوهر السلطة الموجود فى الوظائف السياسية ، وهذا الجوهر يعينه الله ويسميه. ونجد أنه فى هذا التقسيم بين مادية نظام الحكم وجوهر السلطة رجوع إلى التقسيم الأفلاطونى للمنهج.[٣]

ويقول إن البعض يتنقد التعاليم المسيحية ويتهمها بأنها مخالفة لمقتضيات الدولة، ويتمثل ذلك فى عدم مقاومة الشر واعطاء الخد الأيمن بعد الأيسر ، واعطاء ستة لمن طلب خمسة، والرد على ذلك هو أننا فى كل العصور نجد الناس تعلى وتكبر من شأن من يفعل ذلك ، ألم يُمدح الكتاب الملوك والأقوياء الذين يتجاوزون عن الإساءة ؟ فلماذا نعجب نحن من ذلك حين يفعله الوثنيون، ثم ننكره ونعترض عليه حين يفعله المسيحيون ؟ [٤]

---

(١) – عبد الرحمن بدوى ، فلسفة العصور الوسطى ، مرجع سابق ، ص٣٩.

(٢) – على زيعور ، مرجع سابق ، ص٢٢٧.

(٣) – على زيعور ، مرجع سابق ، ص٢٢٨.

(٤) – يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، مؤسسة هنداوى ، القاهرة ، ٢٠١٤م ، ص٥٠

ويوضح أوغسطين العلاقة بين السلطة والألوهية فيصرح أن عناية الله لا تترك للدول وأنظمة الحكم المختلفة السير بدون عناية أو خطة محكمة، وذلك لأن الله ينظم كل شئ ، وتخضع كل البلاد فى كل العصور لنظام الحكم الموافق لذلك. فالله هو الذى يعطى لكل دولة النظام الذى تستحقه. كما يرى أن سبى روما وسقوطها كان مستحقاً عليها ، وأن كل المجريات والحوادث التاريخية تتم وفقاً لخطة إلهية محكمة.

كما أن الحاكم الظالم من عند الله أيضاً ، وعلى المسيحيين تحمل ظلمه ، وذلك لأن للظلم غاية حدودها الله ذاته، ولذلك تجب طاعته وليس الثورة عليه وفقاً للتعاليم المسيحية فى رسائل القديس بولس الرسول بصورة خاصة.(١)

يضع القديس أوغسطين الكنيسة فى المرتبة الأعلى من الدولة وسيستخدم ذلك فيما بعد ولفترات طويلة ممتدة من الزمان لتقوية سلطة الكنيسة واعطائها الأولوية على الدولة. ويدعو أوغسطين الدولة أو النظام الدنيوى (الزمنى) إلى الانتفاع والاستفادة من تعاليم الكنيسة والاسترشاد بغاياتها وأهدافها ورسالتها النبيلة.

ويرى البعض من الشراح والمفسرين والنقاد أن فى هذه الازدواجية ميل القديس أوغسطين المانوى أو الإثنية المانوية التى تشيد وتبنى عليها العقيدة بأكملها ، حتى إن بعض المؤرخين ذهب بعيداً إلى درجة دمج المشكلة الثيولوجية لهاتين المدينتين مع المشكلة التى كانت قائمة فى عهده بين كل من الكنيسة من جهة، والدولة من جهة أخرى، فالبنى التحتية لتقسيم التاريخ والمدينة يكمن فى المجتمع أو فى الواقع التاريخى وقتها ، فالمعطيات السياسية والتنافس على السلطة بين الكنيسة والحكام هو الأساس.(٢)

النظرية الأخلاقية الأوغسطينية :

تتصل النظرية الأخلاقية عند أوغسطين فى حلها مثل كافة المشكلات والنظريات الأخرى التى عالجها اتصالاً وثيقاً بالله. فالله هو مصدر الحقيقة والأخلاق على السواء، لذا يقر بأن الحياة السعيدة هى النعيم فى الله ، ومن أجل الله ، وأن كلاً من السعادة والحقيقة شيئان مترادفان بمعنى أن الذى يطلب أحدهما يطلب الآخر أيضاً وذلك لأن الله هو مصدرهما.

أما الغاية الأخلاقية فهى المعرفة وحب الله، وموضوعها هو القانون الأبدى أو قانون الطبيعة، وهو ثابت لا يتغير بتغير الزمان أو المكان ، لأنه موجود فى نفوس الأفراد منذ البدء، ومصدره هو الله ذاته.

---

(١) – على زيعور ، مرجع سابق ، ص٢٢٩.

(٢) – المرجع السابق ، ص ص ٢٢٦ /٢٢٧.

ويمكننا أن نطلق على القانون الأخلاقى اسم (القانون الإلهى)، ذلك لأن مصدره هو الله نفسه. وطبيعته من طبيعة القوانين الرياضية أيضاً، لأنه يتصف بالأزلية والأبدية تماماً مثل الحقائق الرياضية ، بالإضافة إلى أن القانون الأخلاقى موجود فى الكون ، والآمر به هو الله ذاته.ولهذا يظهر هذا القانون باعتباره أمراً ونهياً : أمراً لأنه يوجب السير تبعاً لمقتضيات النظام ، ونهياً باعتباره عكس ذلك.(١)

كما أن القانون الخلقى يعد موضوعاً مشتهياً بالنسبة إلى الإنسان، وذلك بالإضافة إلى كونه واجباً، لأنه خير فى ذاته، وبذلك نطلبه لذاته وليس لكونه واجباً فحسب ، وهكذا تتلاقى كل من إرادتنا وإرادة الله فى الوقت نفسه.

فالقانون الخلقى من حيث وجوبيته فإنه يقتصر على الوصايا التى تحصر نشاطنا فى النظام العام. ومن حيث هو مشتهى : فإنه يفتح لنا ميداناً أو مجالاً غير محدود ، بمعنى أن الحياة الكاملة غير واجبة علينا ، وذلك لأن الكمال ليس مستطاعاً للجميع فى الظروف المختلفة ، والفضيلة الكبرى فى نظر القديس أوغسطين هى محبة الله صاحب النظام وواضعه والمعين نفسه ، إذ ان فضيلة المحبة تتضمن فى ذاتها سائر الفضائل الأخرى، فالمحبة هى الحكمة من حيث إنها الوصول إلى ذروة الخير ، كما إنها هى الفطنة أيضاً لأنها تبعدنا عن كل ما خلا الله. بالإضافة إلى أنها الشجاعة أيضاً بفضل قوة اتحادنا بالله ، وأخيراً فإن المحبة هى العدالة، بمعنى أنها تعتبر فوزاً للنظام. وبالتالى نستخلص أن السعادة والفضيلة متطابقتان تماماً.(٢)

ويرجع أوغسطين كل المسائل الأخلاقية إلى مشكلة الخير والشر. فالخير هو السير بمقتضى القانون الإلهى (الطبيعى) والشر يكمن فى مخالفته. أما بالنسبة إلى الحقيقة الوجودية للخير والشر ، هى أن الخير هو عبارة عن شئ ما بالفعل ، أما الشر فلا يمكن اعتباره وجوداً حقيقياً على الإطلاق ، ولكنه سلب محض. بمعنى أن الشر هو سلب للخير أو النظام. وبالتالى فإن علة الخير فاعلية (فعل) ، والشر علة (نقص) ، فيكون الخير شيئًا ايجابيًا وجوديًا ، ويكون الشر نقصاناً أو عدماً.(٣)

---

(١) – عبد الرحمن بدوى ، فلسفة العصور الوسطى ، ط٣ ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٩م ، ص ص٣٥ ، ٣٦.
(٢) – يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، ص٤١.
(٣) – عبد الرحمن بدوى ، مرجع سابق ، ص٣٦.

القانون الطبيعى :

هو أساس الحياة الإجتماعية ، وهو قانون يستكشفه الناس كافة من خلال العقل ، وهو يعود إلى قضيتين ضرورتين: ألا يصنع المرء بالآخرين ما لا يريد أن يصنع به ، وأن يعطِ لكل ذى حق حقه.

فحين عصى آدم الله ، انحط وسقط عن المرتبة التى رفعه الله إليها ، وأسقط ذريته ونسله كلها معه ، وأصبح الإنسان خاليًا من المواهب الإلهية ذا طبيعة فاسدة ومشوهة ، ومال إلى العبث بالقانون الخلقى، وبالتالى توجّب وضع القانون الوضعى وعقوباته التى تؤيده بالقوة، وذلك لإيقاف العابثين عند حدهم ، واصلاحهم وتوفير الأمان والطمأنينة للأخيار ، وهذه المهمة هى التى تسوغ السلطة الزمنية كما يقول القديس بولس الرسول ، بالإضافة إلى أنه قد نشأ بها نظام ثانوى، ولكنه طبيعى فى الوقت نفسه، يعود إليه حق السلطان فى الإكراه والجبر، بالإضافة إلى كل ما يلزمه من سيف وحرب ورق وملكية فردية، وذلك لأن كل هذه الأمور هى بمثابة عقوبة على الخطيئة، كما أنها ضمان للنظام العام للدولة.(١)

ويرى أن كل من خيرات النفس وخيرات الجسد لاترضى نزوعنا الطبيعى للسعادة، وهذا النزوع ليس عبثياً، لأنه يوجد فى الطبيعة نظاماً وغائية يقرها العقل كقانون كلى لأن النزوع الطبيعى الذى لا ينتهى إلى غائية هو بمثابة تناقض صريح وشئ غير معقول ، لذلك وجب الإقرار بموجود أعلى سرمدى كامل هو الخير الأعظم، وهو سعادتنا الدائمة الكاملة.

وبما أن حياة الجسد هى النفس ، فحياة النفس هى الله ذاته ، واننا فى نزوعنا إلى الخير الكامل أو السعادة ، فإننا فى الحقيقة ننزع إلى الله بصورة طبيعية وتلقائية فى الوقت نفسه، لذا ينبغى علينا أن نطابق بين إرادتنا والإرادة الإلهية، وأن نحول القضية المعربة عن الواقع إلى الواجب ، وذلك لأنه لا يمكن تصور قيام فلسفة أخلاقية بدون إلزام وجزاء.(٢)

ويصرح أن الفضائل فى حد ذاتها عبارة عن وسائل لغاية أبعد منها ، وأنها ليست غايات كما زعم كل من الأبيقوريين والرواقيين ، إذ إن الفضائل إذا أصبحت غايات وانحلت الصلة بينها وبين الغاية الحقة، تحولت إلى رذائل ونواقص ، والى كبرياء ولذة مقنعة ، بمعنى أن السعادة الكاملة لا تتحقق إلا فى الحياة الأخرى ، فتصل النفس الإنسانية إلى الله

---

(١) – يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، ص٥٠.

(٢) – المرجع السابق ، ص ص٤٧/ ٤٨.

من خلال الإرادة والعقل على السواء ، ونلاحظ ضرورة فكرة الواجب فى فكر القديس أوغسطين ، وأنه يقيم الأخلاق على أساس عقلى متين.[١]

هذا ويرى القديس أوغسطين أن علم الأخلاق (L' Ethique) هو الذى يدرس موضوع الخير الأسمى الذى ترتبط به كل أفعالنا ونسعى إليه ، وذلك لأننا ندرك أننا إذا حصلنا عليه سنسعد ولن نكون فى حاجة إل شئ آخر ،لأنه بمثابة الخير الأسمى وهو الأصل لكل سعادة.[٢]

ويرى أننا كثيراً ما نرى أين توجد السعادة الحقة بوضوح ، ثم نبتعد عنها بإرادتنا ونختار سعادة أخرى ، فلا يتبقى سند للفضيلة ، ذلك لأن الله وضع فينا نظاماً معيناً كما فى سائر الأشياء أيضاً لكى يُحترم ونسير بموجبه.

نصيب الأتقياء والمختارين :

نصيب الأتقياء فى الحياة الأخرى هو معاينة الله ورؤيته ، ليس بعين الجسد لأنها تعجز عن رؤية الله بأى حال من الأحوال ، ليس فى هذه الحياة ولا فى بعدها ، ولكن سيكون للأبرار جسد محرر من كافة النواقص والعيوب ، وسوف يكون لهم إدراكات حسية لا يمكن معرفتها أو تصورها فى حياتنا الحالية. [٣]

الإنسان يتأرجح بين الخير والشر، بين الصالح والطالح، ويضرب مثلاً بسليمان النبى الحكيم ، ملك أورشليم ، أكثر ملوك بنى إسرائيل فطنة وحكمة ، وكاتب العديد من الأسفار المقدسة فى العهد القديم ، منها الأمثال الجامعة والحكمة وغيرهما ، يقول سليمان الحكيم فى مقدمة سفر الجامعة : ((باطل الأباطيل الكل باطل. أى فائدة للبشر من جميع تعبهم الذى يعانونه تحت الشمس)). (جامعة ١: ٢-٣).[٤]

تفرقت الناس فى المجتمع إلى طوائف وأقسام مختلفة، وذلك حين دخل الشر إلى أرضنا بسبب سقوط أبينا آدم ، وأصبحت كل طائفة من البشر تسعى إلى خير ما ، ويشترك المجتمع الواحد فى الفكر والعاطفة ، كما يشترك شهود التمثيل فى الإجماع على الإعجاب بممثل، فيكوّن ذلك منهم وحدة معنوية واحدة.

---

(١) – المرجع السابق ، ص٤١.

(٢) – القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد الأول ، ص٣٧٧.

(٣) – يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص ٤٨.

(٤) – القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد الثالث ، الكتب (١٨-٢٢) ، نقله إلى العربية : الخور أسقف يوحنا الحلو ، ط٢ ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٧م ، ص١٧٤.

والحال نفسه بالنسبة للدولة فإن الدولة أو المدينة البشرية هى عبارة عن جماعة من الناس تؤلف فيما بينهم محبة مشتركة على حب موضوع معين ، ويرى أنه فى الإنسان يوجد نوعان متعارضان تماماً من المحبة: محبة الذات إلى حد امتهان الله ، ومحبة الله إلى حد امتهان الذات ، كما أن هناك مدينتين تعود إليهما كافة المجتمعات الإنسانية: المدينة الأرضية أو مدينة الشيطان ، والمدينة السماوية أو مدينة الله كما سبق الذكر.

دور الإرادة الإنسانية :

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه ليست خيرة بالطبع ، وتلك شريرة بالطبع ، كما يذهب فى ذلك المانويون ، ولكن الحقيقة هى أن كل إنسان ينتمى إلى إحدى هاتين المدينتين بمحض إرادته وحده ، كما أنه يوجد بين المدينتين حرب هائلة منذ بداية وجودهما ، فنجد أن المدينة السماوية تجاهد فى سبيل الخير والعدالة ، والأخرى تعمل على نصرة الظلم والشر ، وهذه الحرب لن تزال مستعرة مستمرة حتى نهاية العالم ، وذلك حتى يفصل بينهما السيد المسيح فى آخر الزمان وفى نهاية العالم ، فتنعم المدينة السماوية بالسعادة الأبدية والفرح الأزلى الدائم ، أما الأخرى فتلقى جزاءها العادل فى النار الأبدية التى لا تنطفىء.[١]

سبب انحلال وتدهور الحضارات :

يرى القديس أوغسطين أن ذلك يحدث بسبب ابتعاد الناس عن المعين الأول للحضارات ، وهو العصر الذى سادت فيه اليهودية والمسيحية باعتبارهما ديناً واحداً أو يعبران عن شيئ واحد.

الدولة تنشأ من الغرائز الموجودة فى الطبيعة البشرية ، وليس عن عقد أو عن خطايا الناس. مما يوضح أهمية الدولة بالنسبة إلى الحياة الإنسانية ، وأنها ليست شيئاً عرضياً.

أما عن المثل الأعلى للدولة :

هو (المثل المسيحى)، وهذه الدولة تستمد سلطاتها من الله مباشرة (مصدر السلطات). بمعنى أنها ليست دولة علمانية خالصة ، ولكنها دينية أيضاً. فتجمع بين كل من : الطابع العلمانى ، والطابع الدينى. ومن مبادئها الأصلية ، العمل على تحقيق السعادة على الأرض وفى الآخرة أيضاً.[٢]

---

(١) – يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص ٤٨.

(٢) – عبد الرحمن بدوى ، فلسفة العصور الوسطى ، ص ص٣٨,٣٩.

إننا بفهم المسيحية تعود الأمبراطورية أزهى وأعظم مما كانت عليه فى أفضل أيامها من حيث القوة والفلاح والتفوق ، فالتعاليم المسيحية السامية الراقية، وخاصة المحبة هى التى تضمن التآلف بين الأفراد فى الدولة.

وذلك لأنها ترفض الحقد والأنانية والشر، وتعمل على شفاء الشرير من شره وتحوله إلى إنسان طيب مسالم نافع لنفسه ولمجتمعه ومدينته ، ولكننا إذا قابلنا الشر والعدوان بمثله يزيد ويترسخ الشر فى قلب المعتدى كما يدخل الشر إلى قلب المقاوم ، وتنتشر الكراهية والفرقة والشقاق والبغضاء ، ويجب أن ننوه إلى أن المحبة المسيحية تتناقض مع الحزم، فلابد من تأديب الشرير لمصلحته حتى وان كره ذلك فى بعض الأحوال ، كما يفعل الأب مع ابنه يؤدبه ولكنه لا يتوقف عن محبته فلا يضرب إلا لتقويم وإصلاح الإعوجاج.[١]

والإنسان السعيد :

هو من يتمتع بالله كما تتمتع العين بالنور. فأفلاطون يضع الخير الأسمى فى أن يحيا الإنسان حسب الفضيلة ، ولا يتحقق ذلك إلا فيمن يعرف الله ويقتدى به ، وذلك هو الطريق الوحيد للسعادة ، وبالتالى فإن محب الحكمة – أو الفيلسوف لا يجد السعادة إلا إذا تمتع بالله. ويفسر تعاسة الإنسان بسبب سعيه إلى ما يحب، لأنه يحب أشياء غير قابلة للحب ، وذلك لأننا لا يمكن أن نسعد إن لم نتمتع بما نحب.

وبما أن السعادة هى هدف الفلسفة، فإن التمتع بالله ومحبته هى السعادة ، ونجد أن جميع الفلاسفة المؤمنين بأن الله الحق والسامى هو الخالق ونور العقول وغاية الإنسان ، يدعون أفلاطونيين ويجب أن نفضلهم على جميع الفلاسفة الآخرين ونقر بقربهم الشديد منا.[٢]

ويرى أن أكثر ما يحزن هو أن المصير يهدد الجميع فى هذه الحياة التى تنقضى تحت الشمس ، وذلك فى إشارة إلى المعاناة الدنيوية التى يشترك فيها كل من الصالحين والأشرار على السواء، فيقول سليمان الحكيم : ((باطل يجرى على الأرض. صديقون يصيبهم ما يليق بعمل المنافقين، ومنافقون يصيبهم ما يليق بعمل الصديقين. فقلت هذا أيضاً باطل)).
(الجامعة ٨: ١٤).

ويكرس سليمان الحكيم سفر الجامعة للتشويق إلى الحياة الأخرى، حيث لا مكان للباطل بل للحقيقة الكاملة تحت الذى صنع الشمس. فإنه بدون القضاء العادل من الله

---

(١) – يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص٥٠.
(٢) – القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد الأول ، ص٣٧٨.

يتلاشى الإنسان فى باطله بل أنه يشبه الباطل ذاته. ويوصى ابنه فى نهاية سفره قائلاً : ((اتق الله واحفظ وصاياه ، لأن هذا هو الإنسان كله. لأن الله سيحضر كل عمل ، ليدين على كل خفى ، خيراً كان أو شراً)). (الجامعة ١٢ : ١٣).[١]

ويرى أن الدولة هى مجموعة عاقلة تتوحد حول ملكية مشتركة لما تحب ، ولمعرفة شعب ما علينا التأمل فيما يحب ، أياً كان موضوع حبه ، وهذه الجموعة العاقلة تحمل شرعاً اسم دولة ، وتكون الدولة عظيمة ممتازة إذا جمعت بين أفرادها مصلحة نبيلة ، والعكس صحيح.[٢]

ونقرأ فى الكتاب المقدس العديد من الآيات حول (مدينة الله)، فنجد مثلاً فى سفر المزامير: (قد قيل بك أمجاد يا مدينة الله). (مزمور ٨٧ : ٣) ، و(عظيم هو الرب وحميد جداً فى مدينة إلهنا جبل قدسه). (مزمور ٤٨ : ١) ، وأيضاً : (كما سمعنا هكذا رأينا فى مدينة رب الجنود ، فى مدينة إلهنا. الله يثبتها إلى الأبد). (مزمور ٤٨ :٨) ، وأخيراً : (نهر سواقيه ترح مدينة الله ، مقدس مساكن العلى).(مزمور ٤٦ : ٤).[٣]

أما بالنسبة إلى طبيعة التفسيرات التى يحاول معلمو الوثنيين تقديمها لآلهتهم، فإنهم يقولون إن للآلهة جانباً جسدياً معيناً يوضح معناها الطبيعى ، وفى هذا الطرح نحن نبحث هنا عن الجانب النفسى وليس اللاهوتى الذى له الأهمية بالنسبة لله وليس بالطبيعة ، وذلك لأن الله هو الإله الحقيقى وحده دون سواه ليس بالاختيار ولكن بالطبيعة.[٤]

المدن الوثنية مثل روما، واليونان، ومصر، وبابل القديمة، وكل الممالك الأخرى لا تعرف العدالة الحقيقية وذلك لأنها، بصورة عامة ، ترفض طاعة الله، والطاعة هى التى تحافظ بحب الإيمان المستقيم على سلطة النفس على الجسد، وسلطة العقل على العيوب. ويرى أن الديانة الصحيحة هى الأساس لكل فضيلة من الفضائل ، وعلى النفس والعقل تأدية واجب العبادة لله ، فلا تكون السيطرة للنفس على الجسد، والعيوب مستقيمة إن لم ترد إلى الله فتكون فى الحقيقة عيوب ورذائل وليست فضائل ، حتى وان بدت شرعية ، فتكون مجرد كبرياء ، وذلك لأن المبدأ ليس من الإنسان ولكنه مما هو أعلى منه.

---

(١) – القديس أوغسطين ، المصدر السابق ، ص١٧٥.

(٢) – المصدر نفسه ، ص١٦١.

(3) – R.W. Dyson , Cambridge Texts In The History Of Political Thought Augustine The City Of God Against The Pagans , Cambridge University Press , U.K. , 1998 , PP ; 449 .

(4) – Saint Augustine , The City Of God , Translated By ; Dods D.D. Marcus , Books (1-22) , Hendrickson Publishers , U.S.A. , 2009 , P ; 175 .

والجدير بالذكر أن هناك سلاماً زمنياً مشتركاً بين كل من الصالحين والأشرار على السواء فى مسيرتهم على هذه الأرض ، ويرى أن النفس هى حياة الجسد والله هو حياة النفس السعيدة ، ويقول : ((طوبى للشعب الذى الرب إلهه)). (مزمور ١٤٣ : ١٥). وبالمثل فالويل للشعب الذى يبتعد عن الله.[١]

التمايز بين الأبرار والأشرار :

يتحدث القديس أوغسطين عن الاختلاط والامتزاج الحالى (الظاهرى) بين الأبرار والأشرار فى هذه الحياة الدنيا وأنهم سيتميزون عن بعضهما البعض يوم الدين، ويقدم مثل الزارع للسيد المسيح فنلاحظ أن الحقل المزروع زرعاً جيداً زرع معه الزوان أيضاً ، ويفسر هذا المثل للتلاميذ قائلاً : ((إن من يزرع الزرع الجيد هو ابن الإنسان والحقل هو العالم ، والزرع الجيد هم أبناء الملكوت ، والزوان يعنى أبناء الهلاك والعدو الذى يزرعه هو الشيطان والحصاد هو نهاية العالم ، والحصادون هم الملائكة. وكما أن الزوان يجمع ويلقى فى النار ليحترق، هكذا سيكون فى نهاية العالم يرسل ابن الإنسان ملائكته فينتزعون من مملكته جميع الشكوك وفاعلى الإثم ليلقى بهم فى آتون النار حيث البكاء وصرير الأسنان، حينئذ يضئ الأبرار كالشمس فى ملكوت أبيهم. من له أذنان للسمع فليسمع)). (متى ١٣ : ٤٣).

ونلاحظ أن السيد المسيح لا يسمى هنا الدينونة أو يوم القضاء ، ولكنه يعبر عنه من خلال الأشياء ذاتها ، وأنه سيكون فى آخر الزمان.[٢]

يفضل مواطنو المدينة الأرضية آلهتهم الخاصة بهم أكثر من مؤسس المدينة المقدسة الازلية، وذلك لأنهم لا يعلمون أنه هو إله الآلهة كلها ورب كل الأرباب.[٣]

يرى أوغطسين وجوب تفضيل آراء الفلاسفة الأفلاطونيين فى المسائل الإلهية اللاهوتية على بقية الفلاسفة الآخرين ، وذلك لأن أفلاطون قد عرف الرجل الحكيم على أنه هو الذى يعرف ويحب الله أيضاً ، أما الوثنيون فإن قصصهم أو لاهوتهم الذى يدور بأكمله حول الآلهة وحول مغامراتهم وجرائمهم قد لوث هذا اللاهوت المدنى أيضاً، ودنس الملائكة تحت مسمى الآلهة، كما أنه أغوى الناس للاستسلام للشهوات والرذائل والملذات الأرضية رغبة منهم فى تكريم وتشريف الآلهة من خلال العيوب والنواقص البشرية الإنسانية.

---

(١) – القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد الثالث ، ص ص١٦٢,١٦٣.

(٢) – المصدر السابق ، ص١٧٨.

(3) - R.W. Dyson , Cambridge Texts In The History Of Political Thought Augustine The City Of God Against The Pagans , P ; 450. .

وأيضاً من خلال ملء وتعبئة عقول من يعبدونهم من البشر بالرغبات الدنسة الملوثة وتحميسهم من أجل تقديم طقوس العبادة لبعض الآلهة بعينهم ، كما كانت مثل هذه العبادات مكرمة ومبجلة جداً فى المعابد الوثنية.[١]

أما بالنسبة إلى عدد أجزاء مؤلفه (مدينة الله) الإثنين وعشرين ، نجد أن هناك بعض المعلومات التى يمكنها ان توضح سبب اختيار هذا الرقم بالذات فيمكن القول إن القديس أوغسطين يعلم حق المعرفة أن المزامير فى العهد القديم قد رتبت أساساً طبقاً للاثنين والعشرين حرفاً الخاصين بأبجدية اللغة العبرية.

والجدير بالذكر أن المزمور رقم مائة وثمانية عشر مجزأ إلى اثنين وعشرين جزءاً ، كما يتفق ذلك مع فكر كل من أبيه الروحى أمبروسيوس وأوريجين على السواء ، وكان مصدر هذا الرأى هو التعليم الدينى اليهودى والذى يعتبر تعليماً اخلاقياً فى بنيته ومحتواه. ومن هنا يمكننا أن نفترض ثانية الإجابة الأقرب للسؤال الخاص بالترتيب غير العادى لكتابه الضخم (مدينة الله) فى اثنين وعشرين جزءاً ، بأن القديس أوغسطين اختار هذ الرقم (٢٢) الخاص بالمزمور المائة والثمانية عشر الخاص بالحديث حول الفكر اللاهوتى لمدينة الله فى الكتاب المقدس ، والذى من الملاحظ بوضوح أنه يشغل مكانة هامة منذ بداية الكتاب وحتى نهايته. [٢]

(1) - Saint Augustine , The City Of God , Translated By ; Dods D.D. Marcus , P ; 222 .
(2) – Van Oont Johannes , Jerusalem And Babylon A Study Into Augustine's City Of God And The Sources Of His Doctrine Of The wo Cities , Volume (14) , Library Of Congress , New York , 1991 , PP ; 83, 84 .

ومن أهم النتائج التى توصلت إليها جراء هذه الدراسة ما يلى :

أولاً: اقترب القديس أوغسطين من المنظور الأفلاطونى للخيرات بقدر ماهو مانوى وأقر، بأن الفرق بين المدينتين هو فرق فى الجوهر ليس إلا.

ولكن يجب علينا ألا نجعل النظرية الأوغسطينية فى المجتمع والسياسة بمثابة انعكاس لواقع سياسى، لأن ذلك يتناقض ومذهبه العام الذى لا يفصل فيه بين ما هو مادى وما هو روحى.

ثانياً: رأى القديس أوغسطين أن البنى التحتية لتقسيم التاريخ والمدينتين يكمن فى المجتمع أو فى الواقع التاريخى حينذاك، فالمعضلات السياسية والتنافس على السلطة بين الكنيسة والحكام هى الأساس.

ثالثاً: إن تلاميذ القديس أوغسطين من بعده هم الذين وسعوا الهوة بين المدينتين ، كما جعلوا من المدينة الأرضية مدينة للشيطان ، أما أوغسطين فقد لطف من حدة هذه الاثنية حين صرح بأن الله وحده هو الذى يميز بينهما، وأن المدينة الأرضية ليست كلها سيئات ونقائص، وأن ما يمكن أن يقال عنها هو أن أمجادها زائلة من فخار وسلطان وخيرات هى أشياء مؤقتة وغير دائمة ، كما أن مزاياها أيضاً ليست بمزايا وحقائق المدينة الأخرى السماوية الروحية.

رابعاً: بالنسبة إلى علاقة الكنيسة بالدولة يضع القديس أوغسطين الكنيسة فى المرتبة الأعلى من الدولة، وسيستخدم ذلك فيما بعد ولفترات طويلة ممتدة من الزمان لتقوية سلطة الكنيسة واعطائها الأولوية على الدولة.

ويدعو أوغسطين الدولة أو النظام الدنيوى (الزمنى) إلى الانتفاع والاستفادة من تعاليم الكنيسة والاسترشاد بغاياتها وأهدافها ورسالتها النبيلة.

خامساً: ترتبط النظرية السياسية ارتباطاً وثيقاً بمذهبه اللاهوتى، سواء من حيث علاقة جوهر السلطة، أو من حيث علاقة مجرى التاريخ بالعناية الإلهية ، بمعنى أن الله هو الذى يضفى على السلطة السياسية الشرعية ، وذلك دون أن يكفل الممارسة الفعلية الواقعية لهذه السلطة. كما يخضع كل فعل سياسى للعناية الإلهية من حيث الجوهر.

سادساً: مزج القديس أوغسطين فكرة النظام بالفلسفة الأفلاطونية – والفلسفة الرواقية ، ومذهب شيشرون – وذلك حين أقر بأن القانون الطبيعى هو نفسه القانون الإلهى.

سابعاً: رجع إلى الأخلاق المسيحية والنظرة المسيحية إلى الوجود ، لدى القديس بولس الرسول بالتحديد. وذلك حين وحد بين الحقيقة والأخلاق، وخاصة فى فكرة المحبة المسيحية.

ثامناً: ربط مشكلة الخير والشر بالله ، كما فعل فى كافة المشكلات الأخرى ، وذلك بعد إيمانه بالمسيحية وترك المانوية مع صلته الوثيقة بالأفكار الأفلاطونية ، فجعل من الشر عدماً وسلباً للخير، وليس شيئاً قائماً بذاته.

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً : المصادر العربية والمترجمة إليها :

(١) – القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد الأول ، الكتب من (١–١٠) ، نقله إلى العربية : الخور أسقف يوحنا الحلو ، ط٢ ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٦م.

(٢) – القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد الثالث ، الكتب (١٨–٢٢) ، نقله إلى العربية : الخور أسقف يوحنا الحلو ، ط٢ ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٧م.

ثانياً : المصادر الأجنبية :

1 - Saint Augustine The Bishop Of Hippo , The City Of God , Part (2), Book (2) , Volume (II) , Translated By : The Rev. Marcus Dods , M. , T&T Clark , London , New York , 2009.

ثالثاً : المراجع العربية والمترجمة إليها :

(١) – حسن حنفى ، نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط (أوغسطين – أنسلم – توما الأكوينى) ، ط٢ ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨م.

(٢) – عبد الرحمن بدوى ، فلسفة العصور الوسطى ، ط٣ ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٩م.

(٣) – على زيعور ، أوغسطينوس مع مقدمات فى العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية ، ط١ ، دار إقرأ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م.

(٤) – فريال حسن خليفة ، المجتمع المدنى عند توماس هوبز وجون لوك ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ٢٠٠٥م.

(٥) – قحطان أحمد سليمان الحمدانى ، الأساس فى العلوم السياسية ، ط١ ، دار مجدلاوى ، عمان ، الأردن ، ٢٠٠٤م.

(٦) – محمد السنى ، الثورة وبريق الحرية ، الأدهم للنشر والتوزيع ، ٢٠١٧م.

(٧) – نجدت صبري ئاكرة يى ،الإطار القانونى للأمن القومى : دراسة تحليلية ، ط١ ، دار دجلة ، عمان ، المملكة الأردنية الهاشمية ، ٢٠١٠م.

(٨) – ندى ذبيان ، العنف المقنع ، دار رسلان ، دمشق ، سورية ، ٢٠١٣م.

(٩) – يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط ، مؤسسة هنداوى ، القاهرة، ٢٠١٤م.

رابعاً : المراجع الأجنبية :

1. A.M., Fairbairn , The City Of God A Series Of Discussions In Religion , Hodder And Stoughton , London.
2. Arringston , Robert L , The World's Great Philosophy , Blackwell, U.S.A , 2003.
3. Gerad O Daly, Augustine's City Of God-A Reader Guide , Clarendon Prees Oxford , U.K. , 1999.
4. Robert L. Arringston , The World's Great Philosophy , Blackwell, U.S.A , 2003.
5. R.W. Dyson , Cambridge Texts In The History Of Political Thought, Augustine The City Of God Against The Pagans , Cambridge University Press , U.K. , 1998.
6. Van, Oont Johannes , Jerusalem And Babylon A Study Into Augustine's City Of God And The Sources Of His Doctrine Of The two Cities , Volume (14) , Library Of Congress , New York , 1991.
7. Wetze James , Cambridge Critical Guide Augustine's City Of God-A Critical Guide , Cambridge University Press , U.K. , 2012.

خامساً: الموسوعات ودوائر المعارف العربية والأجنبية :

(١) – رونى إيلى ألفا ؛ موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب ؛ ج١؛ دار الكتب العلمية؛ ط١ ؛ بيروت ؛ لبنان ؛ ١٩٩٢م.